﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٩﴾ [لقمان: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين قدرةِ اللهِ على الخلقِ والبعثِ وتسيير الزَّمنِ والكواكبِ

لمّا ذَكَر ﷻ في الآية السّابقة سعةَ قدرته الَّتي استوجبتِ استيعاب الأنفسِ جميعًا في بعثِها وإعادتها، كما لو كانت نفسًا واحدة، وكان ذلك كنايةً عن هوانِ شأن البعث بالنِّسبة لواسع قدرته؛ ذكر هنا في هذه الآية مِثالًا مشهودًا لهم على وفْقِ كيفيَّة البعث، وهو إيجادُ اللَّيل والنَّهار، ثمَّ إعادة كلٍّ منهما كلَّ يوم بعد انسلاخ أحدهما من الآخر كلَّ مرَّةٍ، ما بقيت الحياة، ثمَّ ذَكَر تسخيره للشَّمس والقمر بقدرته، والشَّمس والقمر أكبر منهم، وهو سبحانه أكبر منهم ومن جميع خلقه، أفيُعجِزُه بعد ذلك أن يُسَخِّرَ أبدانَهم بعد هلاك مادَّتها بالموت فيُعيد إلى تلك الأبدان أرواحها، فيبعثهم كما خلقهم أوَّل مرَّةٍ؟ فكما لا يُعجزه تسخير الأكبر (الشَّمس والقمر)؛ لا يعجزه تسخير الأصغر بإعادة ذواتهم إليه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُولِجُ﴾: (ولج) أصلُ الكلمةِ يدُلُّ على دُخولِ شيءٍ[2]، يُقالُ: ولجتُ البيتَ أَلِج ولوجًا؛ إذا دَخلته، والمَوْلِج إلى الشَّيء: المدخلُ إليه[3]، والإيلاجُ: الإدخال، وقال الرّاغب: إنَّه الدُّخول في مضيقٍ، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40]، وقيل:

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 199، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 184.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولج).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (ولج).

تفسيرٌ بمُطلق الدُّخول[1]، ثمَّ استُعير لزيادة زمان النَّهار في اللَّيل، وعكسه بحسب المطالع والمغارب[2]، والجمع: وُلُجٌ ووُلُوجٌ[3]، وفيه دليلٌ على قدرة الله تعالى وعظمة خلقه.

والمُرادُ بالإيلاج في الآية: الإدخال، مُثِّلَ بِهِ اختفاءُ ظلام اللَّيل عند ظُهورِ نورِ النَّهارِ وعَكْسِهِ تشبيهًا لذلك التَّصييرِ بإدخالِ جسمٍ في جسمٍ آخَرَ[4].

2) ﴿وَسَخَّرَ﴾: (سخر) أصلٌ يدُلُّ على احتقارٍ واستِذلالٍ، من ذلكَ قولُنا: سَخَّرَ اللهُ ﷻ الشَّيء، وذلك إذا ذُلِّل لأمْرِه وإرادته[5]، قالَ الزَّجّاج: تسخير ما في السَّماوات: تسخير الشَّمْس والقَمَر والنُّجوم للآدميّين، وتسخيرها في الأرْض: تسخير بحارها وأنهارها ودوابِّها، وجَميع مَنافِعها[6]، ويُقال: سَخَرَتِ السَّفينَةُ؛ إذا أطاعتْ، وطابَ لَها السَّيْرُ، وتَسَخَّرْتُ دابَّةً لِفُلانٍ: رَكِبْتُها بغَيْر أجْرٍ[7]، ويُقال: سَخِرتُ منه؛ إذا هزِئتَ به[8]، والمقصودُ بالتَّسخير في الآية الكريمة: التَّذليلُ والطّاعةُ.

3) ﴿خَبِيرٌ﴾: أصلُ (خبر) الخُبْرُ، وهو العِلْمُ بِالشَّيءِ، والإخبارُ: الإعلامُ[9]، والخَبيرُ: مُبالغةٌ في اسمِ الفاعلِ من (خبر) المُتعدّي، بمعنى (عَلِمَ)، يُقالُ: خَبَرَ الأمرَ؛ إذا عَلِمه، وجرَّبه، وقد قيل: إنَّه مُشتقٌّ من الخَبَرِ؛ لأنَّ الشَّيء؛ إذا عُلِمَ؛ أمكنَ الإخبارُ بهِ[10]، و(الخَبير) مِنْ أسْماءِ اللهِ ﷻ: العالِمُ بِما كانَ وبِما يَكُون، وقيل: هُوَ العَليم ببَواطِنِ الأشْياءِ[11]، وهو المعنى المُراد في الآية.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ الحقُّ سبحانه عن بعضِ مظاهرِ قُدرتِه، وانفرادِه بالتَّصرُّفِ والتَّدبيرِ، فيقولُ: لقد رأيتَ، وشاهدتَ - أيُّها العاقل - أنَّ الله تعالى يُدخل اللَّيل في النَّهار، ويُدخل النَّهار

(1) الرّاغب، المُفرَدات، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ: (ولج).
(2) المراغي، تفسير المراغي: 3/ 130، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/ 72.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ولج).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 315.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سخر).
(6) ابن سيدَه، المُحكَم: (سخر).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سخر).
(8) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سخر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خبر).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 310.
(11) الزّبيديّ، تاج العروس: (خبر).

في اللَّيل، ويزيد في أحدهما، وينقص من الآخر، على حسب مشيئته وحكمته، وذلَّلَ الشَّمسَ والقَمَرَ يَجريانِ؛ تَحقيقًا لمصالحِ العِبادِ ومنافِعِهم في دينِهم ودُنياهم، كُلٌّ مِنهما يَجريانِ في السَّماءِ إلى وقتٍ مُحدَّدٍ مَعلومٍ، وأنَّ اللهَ بما تَعمَلونَ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ: ذو خِبرةٍ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِكم، وهو مُجازيكم عليها[1].

قـــدَّرَ الـلـهُ الـلَّـيـلَ والنَّـهـارَ والـشَّـمـس والـقـمـر وكـان بالإنسان عليمًا خبيرًا

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملة: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

جملة: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ تقرَّر به معنًى مستقِلٌّ جديدٌ، وإنِ اشترك مع ما قبله في أصل المناسبة، والمعنى المُراد تقريره من الاستئناف: أنَّ البعث والإعادة كائنان في المخلوقات المشاهدة كاللَّيل والنَّهار، والشَّمس والقمر، فتوالي هذه المخلوقات في البزوغ والأفول هو نوعٌ من بعثِها لها، وإعادتها بعد غيابٍ وتلاشٍ، وهذا ممّا يُشاهَد في المخلوقات الكبرى، فإذا كان الله يقدر على إعادتها بعد خفائها؛ فإنَّه سبحانه أقدر على بعث النّاس بعد اختفاء أجرامهم، وغياب ذواتهم بالموت؛ لأنَّ مَنْ يقدِر على تصريف وإعادة الخَلْق الأكبر، فهو على إعادة الصَّغير أقدَر[2].

إثـبـاتُ إمـكـانِ ثـبـوتِ الـشَّيءِ بقياسِهِ على ما هو أعظمُ منه

المقصودُ بالخطابِ في: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ لجميع مَن يصلح له الخطاب، فيُراد به العموم، فهو للمؤمن استفهامٌ تقريريٌّ، وللكافر استفهام إنكاريٌّ، بتنزيله منزلةَ مَن لا يعلم ولا يرى؛ لعدم انتفاعه بما يعلم ويرى، وفي ذلك التَّنزيل استعارة تمثيليَّة بتشبيه هيئة بهيئة، وحالٍ بحال، وجاء الخطاب على ضمير المفرد؛ ليستقلَّ كلُّ فردٍ به؛ إذا

لا طائلَ من عِلمٍ لا يؤدّي إلى تفكُّرٍ في ملكوتِ الله وعظمتِه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 577، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 79، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 131.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 15/ 199، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 184.

تلقّاه، أو لأنَّ الرَّسول ﷺ هو المقصود به أصالةً، وغيره له تبعٌ؛ لأنَّه لا يعلم ذلك من المخلوقين حقَّ عِلْمِهِ غيرُهُ[1].

بلاغةُ الاستفهامِ في السّياقِ المُحكمِ:

خطابُ الأعلى بما هو من شؤون الأدنى لحضّه على الاقتداء

الاستفهام في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مجازٌ مرسلٌ، لكونه مُستعمَلًا على غير حقيقته الطلبيَّة، فهو واردٌ في تقرير المؤمنين وتذكيرهم، وتوبيخ الكافرين والتَّسجيل عليهم بالجهالة والضَّلال، وهو في حقِّ الرَّسول ﷺ مقصودٌ به تحقيق عِلمِه الشَّريف، والتَّحضيض بخطابه على اتِّباعه والاقتداء به، والاستفهام في عموم الخطاب به على غير تعيين المخاطَب، محمولٌ على التَّعجيب من تلك الحال البديعة في الخَلْق والتَّسخير، كأنَّه قيل: تعجَّبُوا - أيُّها المُخاطَبون جميعًا - من بديع صُنْع الله في شأن اللَّيل والنَّهار، والشَّمس والقمر[2].

دلالةُ لفظِ الرُّؤيةِ في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

بيانُ أنَّ الرُّؤيةَ العِلميَّةَ أثرٌ للرُّؤية البصريَّة

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ عِلميَّةٌ، بمعنى العِلم، ولذا تعدَّت إلى مفعولَيْن[3] سدَّ مسدَّهما ﴿أَنَّ﴾ واسمها وخبرها في تأويل مصدر[4]، وتركيب: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تستعمله العرب بمعنى التَّعجيب من مدخولها، والمقصود من الرُّؤية: النَّظر الَّذي يُورِث العِلم، وهو النَّظر التفكُّريُّ العقليُّ، كأنَّه قيل: ألم ترَ، فتمتدُّ بك الرُّؤية إلى ما ذُكِرَ لك من الأحوال، فتعجَب من هذا الصُّنع الخلّاق؟[5] والمعنى: ألم تعلم - علمًا قويًّا جاريًا مجرى الرُّؤية البصريَّة - أنَّ الله تعالى يُدخل كلًّا من اللَّيل في النَّهار في الآخر، فيختلف بذلك حالهما، وقد ذلَّل الشَّمس والقمر، وسخَّرهما لمصالح خلقِهِ طلوعًا وأفولًا، فكان

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 354، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 199، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 185، وابن عثيمين، تفسير سورة لقمان، ص: 171.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 14.
(3) السّامرّائي، معاني النّحو: 2/ 12.
(4) الخطيب، التّفصيل: 21/ 165.
(5) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 14.

كلٌّ منهما يجري في فلكه، إلى أجلٍ سمّاه الله، وحدَّده، لا يعدوه، ولا يقصر عنه[1]، ولذلك عبَّر بالرُّؤية دون العِلم؛ للتَّنبيه على أنَّ مَدخَلَ هذا العِلم رؤيةٌ بالعين الباصرة، والمُشاهَدَة النّاظِرة، وأمّا العِلمُ؛ فلا يدلُّ على اقترانه لرؤية المُشاهَدة.

سرُّ تتابعِ المؤكِّداتِ في سياقِ الآيةِ:

الحقُّ المنكَر يحتاج إلى توكيدٍ حتّى يُعرَفَ ويُذكَرَ

أُكِّدت جملة: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، ولم يقل: (ألم ترَ الله يولج)؛ لأنَّ الآية الكريمة استدلالٌ على إمكان البعث الَّذي أنكروه، وكما أنَّهم أنكروا المُستَدَلَّ عليه، والأمر المنكر يحتاج إلى توكيدٍ، وكذا كان تقرير البعث مسوقًا بتأكيد الحصر عن طريق النَّفي والاستثناء في: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان: 28]، فكذلك هنا جاء الدَّليل على الإمكان مؤكَّدًا؛ ليتناسب المَقيسُ مع المَقيس عليه في توكيد اللَّفظ، كما تناسب معه في تقرير المعنى وتوكيده[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يُولِجُ﴾:

لفظُ الإيلاجِ يدلُّ على التَّغييبِ الكاملِ للشَّيءِ المذكورِ

عبَّر الله تعالى بمادَّة الإيلاج في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، أي: "يُدخل ظُلمةَ اللَّيلِ في ضوء النَّهار؛ إذا أقبل اللَّيل، ويُولِجُ النَّهارَ في اللَّيلِ، يُدخل ضوء النَّهار في ظلمة اللَّيل؛ إذا أقبل النَّهار، أو: بإدخال جزء أحدهما في الآخر بزيادة اللَّيل أو النَّهار"[3]؛ للدَّلالة على تمحُّض النَّهار في النّور، وتمحَّض اللَّيل في الظُّلمة، فإنَّ الإيلاج يدلُّ على التَّغييب الكامل للشَّيء بحيث لا يُرى شيءٌ منه لانحجابه واختفائه بإحاطة الشَّيء المُولَجِ فيه له[4].

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ بالإيلاجِ:

الإيلاجُ يدلُّ على تقلُّص الشَّيءِ بقدرِ ما ولج منه في غيره

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ استعارةٌ

(1) مجموعة من المؤلّفين، التّفسير الوسيط: 8/ 103.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 199.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 379.
(4) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 15/ 200.

تصريحيَّةٌ في تشبيه تعاقُب اللَّيل والنَّهار بإيلاج كلٍّ منهما في الآخر بجامع الموالاةِ في كلٍّ، فالشَّيءُ الَّذي يلج في الشَّيء هو يَليه في الملاصقة والمُجاوَرة والمُتابَعة، أو استعارةٌ تمثيليَّةٌ بتشبيهِ هيئة المُعاقبة بين اللَّيل والنَّهار بهيئة المُوالَجَةِ بين الدَّخيلَيْن؛ للدَّلالة على أنَّه تَعاقبٌ بتداخُلٍ واندماجٍ وامتزاج، وليس بتوازٍ وتَنابُذ كتعاقب الأشياء المُفترِقة، وعبَّر في الولوج بالفعل المضارع؛ لكونه حدوثًا يتجدَّد في كلِّ يومٍ وليلةٍ[1].

معنى (أل) في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾ لحقيقة الجنس، وأيضًا لاستغراقه، أيْ: كلُّ ليلٍ وكلُّ نهار بحسب كلِّ مَطلَعٍ في كلِّ قُطر، فهو تعالى في فصل الشِّتاء يُطيل اللَّيل، ويُقصر النَّهار، وفي فصل الصَّيف يُقصر اللَّيل ويُطيل النَّهار، والَّذي يفعل ذلك هو اللَّه ﷻ الخالق المُدبِّر للكائنات، وذلك لأجل مصالح النَّاس وزراعتهم وراحتهم[2].

تعاقُبُ اللَّيلِ والنَّهارِ دليلٌ على دقَّةِ نظامِ الواحدِ القهّارِ

نكتةُ تقديمِ إيلاج ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ على ﴿ٱلنَّهَارَ﴾:

قُدِّم اللَّيلُ على النَّهار في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾؛ ليدلَّ على سبْق الظُّلمة، وأنَّ النَّهار واردٌ على اللَّيل، فقدَّمه؛ لأنَّ طيَّ ظلمة اللَّيل في الأنوار النَّهاريَّة، فيه تعجيبٌ وتعجيزٌ وإبهارٌ بتبديد النّور للظُّلمات، فمعنى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، أي: إنَّ اللَّيل موجودٌ، ثمَّ هو يدخل بظلمته في أنوار النَّهار، فينحجبُ بها، فهو موجودٌ، ثمَّ يَرِد النَّهار عليه، والحقُّ أنَّ التَّعجيز والتَّعجيب والإبهار ليس في تلاشي الظُّلمة بإدخال اللَّيل في النَّهار فحسب، بل ذلك حاصلٌ من تعاقُب الضِّدَّين (الظُّلمة والنُّور) على نحوٍ متواترٍ مكرور، فالضِّدّيَّة هي الَّتي أبرزت ذلك التَّعجيز، وحقَّقتْ ذلك الإدهاش، ولذا جمع بين إيلاج اللَّيل، وإيلاج النَّهار[3].

الضِّدّيَّةُ في الوجود مظهرٌ من مظاهرِ الإعجازِ فيه

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 200، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 185.
(2) الكتّانيّ، تفسير المنتصر الكتّانيّ: 4/ 185.
(3) ابن جُزي، التّسهيل: 2/ 140.

موقعُ جملة: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ﴾:

جملة: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾؛ ليجمع بين المُسبَّبِ والسَّبب في حيِّز الاستفهام المُقرِّر للعِلم اليقينيِّ المُستشْهَد به على إمكان البعث في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، فالشَّمسُ هي سبب النَّهار، والقمر هو آية اللَّيل، ويستفيد نورَه من الشَّمس؛ ولذا قُدِّمتْ عليه الشَّمس؛ لكونها سببَ بياضه ومبدأ نورِه، ولأنَّها أعظمُ، وتسخيرها أعظم من تسخيره[1].

مُسخِّرُ الشَّمسِ والقمرِ قادرٌ على هدايةِ قلوبِ البشر

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿وَسَخَّرَ﴾:

التَّعبيرُ بالتَّسخير في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾، يدلُّ على نفي الاختياريَّة، والإخضاع المطَّرِد للنِّظام الفوقيِّ والإرادة العلويَّة، فمادَّة التَّسخير تدلُّ على الانقياد التَّكوينيِّ الثّابت، من غير مقاومةٍ بيسرٍ وسلاسة[2].

الكونُ صالحٌ بخضوعِه للهِ والإنسانُ لا يَنصلحُ إلّا بهدايتِهِ

نكتةُ العدولِ عن المضارعِ إلى الماضي:

مجيءُ الإيلاج بصيغة المضارع، في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، وفي التَّسخير بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾؛ لأنَّ تناوب اللَّيل مع النَّهار مُتجدِّدٌ مكرور يحصل في كلِّ يومٍ وليلةٍ، وأمّا تسخير الشَّمس والقمر؛ فهو يدلُّ على نظامٍ ثابتٍ مُستقرٍّ، تحقَّق، وانقضى، فالتَّسخير تمَّ بالفعل، فلا تجدُّدَ فيه ولا تعدُّد، إنَّما التَّجدُّد في آثاره، وجاء الفعل ﴿يُولِجُ﴾ بصيغة المضارع؛ ليدُلَّ على التَّجدُّد والتَّكرار باستمرار؛ لأنَّ الشَّمس تشرق في مكانٍ، وتغرب في مكانٍ آخر في عموم الكرة الأرضيَّة، وهو أمرٌ مُطَّردٌ يعمل برتابة لا تتغيَّر، والسّياق فيه تقديمُ اللَّيل على النَّهار؛

لا يقعُ التَّسخيرُ إلّا على نظامٍ ثابتٍ مُطَّرِدٍ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 131، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 100.
(2) الراغب، المُفردات: (سخر).

لأنَّ اللَّيل هو الأصل، وهو مخلوقٌ قبل خلق الشَّمس، وفي كلِّ القرآن يُقدِّم الله اللَّيل على النَّهار؛ لأنَّه الأصل[1]، والتَّسخير هو الانقياد، وصيغة الماضي في التَّسخير تشير إلى استمرارِ وضعٍ ثابتٍ، لا تصرُّفَ فيه بزيادةٍ أو نقص[2].

نكتةُ تقديمِ تسخيرِ ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾ على ﴿وَٱلۡقَمَرَۖ﴾:

العجيبُ أولى بالتَّقديمِ على ما دونه منطقًا وواقعًا

قدَّم الخطاب القرآني الكريم الشَّمسَ على القمر في قوله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾؛ لأنَّه لمّا كانت الشَّمسُ أكبرَ وأعظمَ؛ كانت أعجب، والنَّفْس تطلب سببَ الأمرِ العجيب أكثرَ ممّا تطلب سببَ الأمر الَّذي لا يكون عجيبًا[3].

فائدةُ تنوين ﴿كُلٌّ﴾ في السّياق:

التَّخفُّفُ من تكرارِ الواضحِ من أغراضِ الإيجازِ بالحذفِ

التَّنوين في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجۡرِيٓ﴾ عِوَضٌ عن مضافٍ، والتَّقدير: كلُّ نيِّرٍ أو كلُّ واحدٍ من الشَّمسِ والقمرِ يجري إلى أجلٍ مُسمًّى، فحذف المضاف لإغناء التَّنوين عنه، ولا يخفى ما فيه من الإيجاز والتَّخفُّف عن الإعادة والتَّكرار، ومفاد ذلك أنَّ الشَّمس والقمر يجريان في مدارهما بنظامٍ ثابتٍ مُحكَمٍ إلى الوقت الَّذي حدَّده سبحانه لنهاية سيرهما، وهو يوم القيامة[4]، وحينها تنتهي الرِّحلة، وينقطع الجريُ المُنوَّه به في الآية الكريمة.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿يَجۡرِيٓ﴾:

كمالُ إرادةِ المخلوقِ في الانقيادِ لإرادةِ الخالقِ

في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ في التَّركيب، كأنَّه شبَّه هيئة الشَّمس والقمر في حركتهما السَّريعة ودورانهما في الفَلَك بأطِّرادٍ وإتقانٍ على غير خَرْقٍ واختلالٍ، بهيئة

(1) الهلال، تفسير القرآن التّريّ الجامع: 21/ 113.
(2) ابن عادل، اللّباب: 15/ 463، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 200، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 76.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 131.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 25/ 131.

ذي الإرادة والاختيار؛ إذا جَرَى لغايته، وسعى لقصده، فكأنَّه بقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قد جعل لهما قصدًا وإرادة، كما يقع لذوي الإراداتِ، فنزَّل الشَّمس والقمر منزلةَ العاقلِ الَّذي يُثْبِتُ لسعيِهِ غرَضًا وغاية.

غرضُ تعديَةِ الجري بالحرفِ ﴿إِلَىٰٓ﴾:

لكلِّ ساعٍ أملٌ ولكلِّ سعيٍ أجَلٌ

تعدَّى الجريُ بحرف الانتهاء في قوله تعالى: ﴿يَجْرِي إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ للتَّنصيص على الغايةِ والمستقرِّ، أيْ: إنَّ جريهما آيِلٌ إلى غايةٍ مُحدَّدة لا ينتهي، ولا يتوقَّف إلّا عندها، وهو يوم القيامة الَّذي هو منتهى حركةِ المخلوقاتِ جميعًا.

الانتهاءُ إلى الغاية في منازلِ الطُّلوع والأفول

أو المُراد: الانتهاء إلى غايتها في منازلِ الطُّلوع والأفول كلَّ يوم وليلةٍ، وخصَّ هذا الموضع بحرف الانتهاء الغائي، ولم يقل: (لأجلٍ مسمّى)، كما في المواضع الأخرى؛ لمناسبة السّياق، فقد تقدَّم قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28]، فذكر الغاية الَّتي تنتهي إليها الخلائق بالبعث؛ فناسب ذلك تعيين غايةِ نظامِ الشَّمس والقمر ببلوغهما الأجل المسمّى - وهو يوم القيامة - فاقتضى التَّعدية بحرف انتهاء الغاية لتلك المناسبة.

فائدةُ ذِكْرِ قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾:

لكلِّ مخلوقٍ مَوْتَةٌ بِحَسَبِهِ تُفضي بِهِ إلى تمام رحلته

في تعليق الجري بالغاية في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إشارةٌ إلى أنَّ لهذا النِّظام الشَّمسيِّ أمدًا مؤقَّتًا، إذا انتهى إليه؛ تعطَّل، كسائر الخلق إذا بلغوا آجالهم؛ قَضَوا، وهو الوقت الَّذي يُؤذِن بانقراض العالم، فربْطُ الجري بالأجل مُوائمٌ للتَّذكير بالبعث، في قوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28][1].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿أَجَلٍ﴾:

الغيوبُ مُبْهَماتٌ لِحكْمةِ اللهِ في سترِ ما هو آتٍ

تنكيرُ لفظِ الأجل في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ على بابه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 185.

من إفادة معنى الإبهام، أيّ: أجلٍ منكورٍ غيرِ معلوم، ووصْفُهُ بلفظ ﴿مُّسَمًّى﴾ لم يرفع إبهامه عند السّامع، بل أفاد أنَّه غيرُ مُبهَمٍ في نفْسه، فإبهامُه حاصِلٌ من جهة السّامع مُعلومٌ وظاهرٌ في جهتِهِ العليا عند الله، وهو يفيد أنَّ إبهامَه مقصودٌ مُرادٌ لِحِكْمَةٍ؛ إذْ هو من صَفَحاتِ الغَيْبِ، قال الشَّعراويُّ: "والأجل هو المدَّة المحدودة للشَّيء، وهي محدودة زمنًا؛ إنْ أردنا ظرفَ الزَّمان، أو محدودة بالمسافة؛ إن أردنا المكان، والمقصود هنا بالأجل: إمّا الأجل النِّهائي لوجود الشَّمس والقمر؛ ثمَّ إذا انشقَّتِ السَّماء؛ كُوِّرتِ الشَّمس، وانكدرت النُّجوم، أو: أنَّ المقصود هنا بالأجل هو للتَّعبير عن عملها اليوميِّ"[1].

نكتةُ بناءِ ﴿مُّسَمًّى﴾ للمفعولِ:

بدءُ عدّاد الأجَلِ في التّناقصِ مع مباشرةِ كلِّ مخلوقٍ للحياةِ

مجيءُ وصف الأجَل بصيغة اسم المفعول في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ دلَّ على ثلاثةِ معانٍ: الدَّلالة على ذات المفعول، وهو الأجلُ نفسُهُ بمقداره وكيفيَّته، والدَّلالة على الحدَثِ الثّابت، فتسميَةُ الأجل ثابتةٌ دائمة؛ لأنَّها حُكمٌ مَقْضيٌّ، والدَّلالة على الحدوث وهي الفِعليَّة، فهو حادِثٌ في الزَّمنِ الماضي، وباعتبار نشأة الشَّمس والقمر، فأجَلُهما يبدأُ في الحدوثِ معهما.

دلالةُ (الواو) في مطلعِ الآيةِ الكريمةِ:

الإنسانُ كَنودٌ رغم أنَّ الدَّلالةَ على الخبيرِ الموجودِ تملأُ الوجودَ

جملة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾، فكلاهما داخِلٌ في حيِّز الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، فكأنَّه قيل هنا: (أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبيرٌ) على اعتبار خصوص الخطاب بالنِّسبة للرَّسول ﷺ، أو عمومه بالنِّسبة للأُمَّة والعالَم، والجملة من عطف النَّتيجة على المقدِّمة؛ لأنَّ مَن شاهد مثل ذلك الصُّنع الرّائق، والتَّدبير الفائق في توالد

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/ 7180.

اللَّيل والنَّهار، ودورة الشَّمس والقمر، لا يكاد يغفُل عن كون صانعه ﷻ محيطًا بجلائل أعماله ودقائقها[1].

بلاغةُ الالتفاتِ لخصوصِ الخطابِ:

على اعتبار خصوص الخطاب للرَّسول ﷺ، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ يكون قد عدل القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع لتقرير عموم الإحاطة بجميع أعمال الخلق مع دخول الرَّسول ﷺ دخولًا أوَّليًّا في مقصود الخطاب وفيه نكتةٌ بديعةٌ، وهي الإشارةُ والإلفات إلى محدوديَّة البشر في علمهم، ووسْع الخالق في علمِه، فالخطاب في: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بالإفراد يدلُّ على أنَّ أهلَ العِلم والتَّحقُّق برؤية الحقائق هم خصوصٌ في الخَلْق، والخطاب في: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالجمع يدلُّ على استيعاب صفة العِلم لله سبحانه، وكمال كشْفِها لكلِّ عمَلٍ يصدر من كلِّ مخلوق.

المخلوقيَّةُ منوطةٌ بتضاؤلِ الإنسانِ واحتياجِهِ وضعفِهِ

بلاغةُ الكنايةِ في جملةِ الفاصلةِ:

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ كنايةٌ عن التَّرغيبِ والتَّرهيبِ والمُحاسبة والمُجازاة، فهو يَجزي العالمَ المستبصِرَ بظواهر الوجود المذكورة بما يستحقُّه، والجاهِلَ العَميَّ عن الواضحات بما يستحقُّه، "لا يعجزه شيءٌ منه، ولا يخفى عنه؛ لأنَّه الخالقُ لهُ كلِّه دقِّهِ وجلِّهِ، وليس للعبد في إيجاده غير الكسب؛ لأنَّه لا يعلم مقدارَ الحركات والسَّكنات في شيءٍ منه، ولو كان هو المُوجِد له لعلم ذلك؛ لأنَّه لا يقدر على الإيجاد ناقصُ العلم أصلًا"[2].

مَن عرفَ اللهَ بأسمائِهِ وصفاتِهِ طابَ له العيشُ

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِمَا﴾:

قدَّم النَّظم الكريم الجارَّ والمجرور في قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ لتخصيص أعمالهم بالخِبرة والإحاطة؛ اهتمامًا بما عملوا، وتحقيقًا

التَّفاعلُ مع مشاهدِ الكونِ يبعثُ على العبادةِ والعملِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 71، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 186.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 201.

لمجازاتهم عليها، ووجه الاهتمام بأعمالهم: التَّنبيه على أنَّ أعمال العباد قد تعلَّقتْ بها صفة الخبير تعظيمًا لغاية الجزاء والحساب، ولكون مدار السّياق يتعلَّق بأعمالهم، فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هو خطابٌ بما ينبغي للعباد أن يكونوا عليه من التَّفاعل بالعلم واليقين مع أحوال الوجود وظواهر الكون وحقائق المخلوقات الكبرى، وهذا العلم والتَّفاعل هو موضوع الأعمال، ولذلك قدَّمها، وشيءٌ آخر: وهو أنَّ سبحانه لمّا ذَكَر أحوال المخلوقات الكبرى وتصريفه لها - في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ - اقتضى تذكير النّاس بأنَّ عِلمَهُ بأحوالهم وأعمالهم، هو أهون عليه؛ ليتَّعظوا، ويعتبروا.

نكتةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ إظهارٌ في مقام الإضمار، ولو اطَّرد السّياق على أسلوبه الأوَّل؛ لقيل: (ألمْ ترَ أنَّ اللّه يُولِجُ ... وأنَّه بما تعملون خبيرٌ)؛ فأظهر الاسم الجليل لتربية المهابة في النُّفوس، وإجراء الصِّفة على الذّات الجليلة، وللإيماء إلى كمال الصِّفة؛ لكمال الذّات المُستفاد من الاسم الجامع الجليل: ﴿ٱللَّهَ﴾، فإذا كان الذّات كاملًا؛ كان الوصف كذلك، ولقصد استقلال الجملة بخطاب الاستفهام التَّقريريِّ، كما استقلَّت جملة: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾ بذلك؛ تعظيمًا لشأن ما ينبغي أن يكونوا عليه من المراقبة والخشية للّه؛ لأنَّهم إذا أقرّوا بعلم اللّه الدَّقيق بجميع أحوالهم وأعمالهم؛ حملهم ذلك على خشيته ومراقبته سبحانه.

إظهارُ الاسمِ الجليلِ باعثٌ على التزامِ عبوديَّةِ اللهِ وتوقيرِهِ

معنى الباء في قوله: ﴿بِمَا﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ على بابها من التَّعدية، فـ﴿خَبِيرٌ﴾ تتعدّى بالباء، فيُقال: خبير بكذا، ومعناها: الإلصاق والملابسة، أي: خبيرٌ خِبْرةً تلاصِق أعمالهم وتلازِمها، وتلتبسُ

الخَلْقُ مُدرَكون بعلمِ اللهِ لا يعزبُ عنه من عملهم شيءٌ

بها كشْفًا وإحاطةً، وعِلْمًا بكُنهِها وكيفيَّتها، "وما دام أنَّه سبحانه خبيرٌ بما تعملون، فهو الَّذي يُهيِّئ لكم صلاح العمل بخبرته وحكمته وقدرته وقيّوميَّته؛ لذلك شرع لكم الأعمال الَّتي تُنظِّم حركةَ حياتكم وحركة عبادتكم"[1]، ولا غَرْوَ أنَّ اليقين بإحاطة الخبير بأعمال البشر القليل منها والكثير يعطي للإنسان فرصةً ليقظة الضَّمير، والتَّحرُّز من الأعمال المحرجة مع اللّٰه الخبير المطَّلع على الخبايا، وسوف يُواجه بها صاحبها يوم تُبلى السَّرائر.

نكتةُ تذييلِ الآيةِ بصفةِ ﴿خَبِيرٌ﴾:

جاء تذييلُ الآية بصفة اللّٰهِ الخبير في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾؛ للدَّلالة على العِلم بالكُنْهِ والكيفيَّة والحقيقة، فيقتضي المبالغة في العلم بأحوالهم وأعمالهم على وجهٍ دقيقٍ، يتجاوز ظواهر الأعمال، ففيه إشارة إلى تطمين المُحسِن وتحذير المُسيء، وأيضًا: لمناسبة المقام؛ فإنَّ تدبير اللَّيل والنَّهار، وتسخير الشَّمس والقمر يستلزم إحاطةً بكيفيّات الحقائق وأكْناه الدَّقائق حتّى يستقيمَ التَّدبير ولا ينخرِمَ التَّسخير، ولذلك اصطفى وصفَ الخبير.

من صفاتِ اللهِ ما يتضمَّنُ الترغيبَ والترهيبَ في آنٍ واحدٍ

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿خَبِيرٞ﴾:

جاء تنكير ﴿خَبِيرٞ﴾ للعموم والتَّفخيم والتَّعظيم، ومجيئه على مثال المبالغة مع التَّنكير زيادةٌ في كمال الصِّفةِ وشمولها، ويصحُّ أن يكون (فعيل) صفة مشبَّهة، أيْ: دائم الخِبرة.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/ 11743.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والأربعون،
سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2025.
مج. 44 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-97-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 44 : المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-97-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4197137 بتاريخ 2025/01/02م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»